الحماية الفرنسية بالمغرب بين الأوج والأفول تحت قيادة الجنرال نوكَيس (1936– 1943)*

تقديم: جامع بيضا

مقدمة عامة

في الستينات من القرن العشرين، كان شاب أمريكي من أصل شيكاغو يتابع دراسته في قسم التاريخ بإحدى جامعات كاليفورنيا التي كانت تنتشر فيها موضة البحث التاريخي آنئذ والمتمثلة في الاهتمام بالعلاقات الوطيدة بين الرأسمال والسياسة. ولما عزم ذلك الباحث، وهو وليام هويسنطن، على إنجاز أطروحته لنيل شهادة (Ph.D) تحت إشراف أستاذ متخصص في التاريخ الفرنسي، وقع الاختيار، سيرا على درب تلك الموضة المشار إليها، على موضوع متعلق برجل الأعمال الفرنسي جاك لوميكر دوبروي[1] المعروف بالسيد لوسيور[2] نظرا لباعه الطويل في إنتاج وتسويق الزيوت الحاملة لهذا الاسم. ومن المعروف أن لوميكر دوبروي هو ذلك الرجل الذي اغتاله بعض المعمرين الغلاة بالدار البيضاء في يونيو 1955.

واقتفاء آثار لوميكر دوبروي هو الذي جعل هويسنطن يقوم بزيارته الأولى للمغرب سنة 1968 والتي توفرت له خلالها فرصة التنقيب في أرشيف الخزانة العامة بالرباط، وكذا الاستماع إلى شهادات بعض الشخصيات المغربية والفرنسية. وأسفرت الزيارة على نتيجة غير تلك المتوقعة، ذلك أن اهتمام الباحث انصب على شخصية كل من ليوطي ونوكيس، وتم إرجاء البحث في موضوع لوميكر دوبروي إلى موعد لاحق. وعن نوكيس صدر للمؤرخ الأمريكي وليام هويسنطن، سنة 1984، عن مطابع جامعة كارولينا الشمالية، كتاب تحت عنوان:

(*) تأليف وليام هويسنطن وتعريب إبراهيم بوطالب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية،الرباط، 2002، 379 ص.
(1) Jacques Lemaigre-Dubreuil.
(2) Monsieur Lesieur.

The Casablanca Connection. French Policy, 1936-1943 ; 320p.

وهو المؤلف الذي نقدمه في هذا العرض.

أما عن ليوطي، فقد نشر هويسنطن كتابا سنة 1995 بعنوان:

Lyautey and the French Conquest of Morocco.

أما المشروع الأول المتعلق بلوميكر دوبروي، فإن هويسنطن لم يتخل عنه. فمخطوطه جاهز اليوم حسب ما أفادنا به الكاتب، وربما رأى النور في أجل قريب تحت عنوان:

The Assassination of Jacques Lemaigre-Dubreuil. A Frenchman Between France and North Africa.

وللعودة إلى الكتاب المخصص لنوكيس والذي صدر سنة 1984، تجدر الإشارة إلى أن السبق في الإطلاع على محتويات هذا العمل القيم كان بطبيعة الحال للملمين بحظ من لغة شكسبير، ثم تبعهم في ذلك مالكو زمام لغة فولتير عندما صدرت الطبعة الفرنسية عن دار "لارمطان" في العام 1995 بعنوان:

L'héritage de Lyautey.Noguès et la politique française au Maroc,1936-1943.

وكان على أهل لغة الضاد أن ينتظروا سبع سنوات أخرى لتفتح لهم دفتا هذا المؤلف بفضل التعريب الذي قام به مشكورا الأستاذ إبراهيم بوطالب، هذا التعريب الذي صدر ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط تحت عنوان:

"الحماية الفرنسية بالمغرب بين الأوج والأفول تحت قيادة الجنرال نوكيس، 1936– 1943"

مضامين الكتاب

تطرق المؤلف إلى موضوع كتابه من خلال تسعة فصول تحت العناوين التالية:

- بصمات ليوطي
- ثورة المدن
- الجوانب الاقتصادية من الباسفكاسيون
- قضايا الاستعمار
- ثلاث مناطق متشابكة
- انهيار فرنسا ومنعطف فيشي
- أمريكا على درب المغرب
- الدار البيضاء وما بعدها

- إرث ليوطي (وهذا الفصل الأخير بمثابة خاتمة)

أن نستعرض محتويات كل فصل على حدة، بل سنخترقها جميعا لاستخراج أهم محطاتها وأبرز قضاياها.

توالى على المغرب منذ نهاية مأمورية ليوطي في خريف 1925 عدد من المقيمين العامين المتشبعين بتجارب استعمارية في بلدان عربية- إسلامية أخرى. فثيودور سطيك[3] (1925–1929) حمل معه تجربته الجزائرية، ولوسيان سان[4] أتى من تونس، وهنري بونصو[5] (1933 – 1936) جاء من الشام، بينما كان مارسيل بيروطون[6] مقيما عاما بتونس قبل تعيينه في الرباط أوائل 1936. وكان كل هؤلاء المسؤولين يعلنون جهارا أمام الملإ أنهم لإرث ليوطي حافظون وعلى دربه سائرون. غير أن ما كانت تسير عليه دواليب الإدارة من المراقبة المباشرة وتهميش الأهالي وترسيخ أقدام المعمرين كان يشكل تكذيبا صارخا لكل تلك التصريحات الرسمية.

وفي سنة 1936 حل الجنرال شارل نوكيس محل مرسيل بيروطون الذي لم تمر على تسلمه مهامه بالرباط إلا شهور معدودة. وجاء هذا التعيين الجديد في ظرفية خاصة جدا محليا ودوليا وفرنسيا. ففي المغرب تصاعد نشاط الحركة الوطنية بشكل ملحوظ، وفي أوربا انتشرت موضة الأنظمة الدكتاتورية، وفي اسبانيا اندلعت حرب أهلية ضروس، وفي فرنسا تمكنت الجبهة الشعبية من الصعود إلى الحكم. ومنذ أن تقلد الجنرال نوكيس منصبه كمقيم عام في الرباط، عمل جاهدا على البروز بصورة الوارث الروحي الحقيقي للمارشال ليوطي، سعيا إلى تعزيز مكانته لدى عموم المغاربة ولدى المخزن، ومن ثمة ترسيخ هيبة فرنسا في البلاد وجعلها في منأى مما يحدق بالعالم من تطورات خطيرة. ولم يكن هذا التوجه مجرد اختيار تكتيكي من نوكيس إذ سبق له أن عرف ليوطي عن قرب وعمل تحت إمرته في ظروف مختلفة بدأ بفترة التغلغل في التخوم المغربية الجزائرية سنة 1901 ونهاية بزمن حرب الريف العصيب. وكانت نظرة نوكيس إلى ليوطي في كل الحالات ملؤها التقدير والإعجاب. وحتى بعدما انتهت مأموريته في المغرب، فقد تدخل ليوطي سنة 1929 ليشير

(3) Théodore Steeg.
(4) Lucien Saint.
(5) Henri Ponsot.
(6) Marcel Peyrouton.

على المقيم المقيم لوسيان سان بالاعتماد على مؤهلات نوكيس كمدير للشؤون الأهلية ومسؤول على الديوان العسكري للإقامة العامة. ولعل كل هذه الأمور هي التي جعلت عددا من الملاحظين الفرنسيين ينوهون بمكانة المقيم العام نوكيس ويعتبرونه أحسن خلف للمارشال ليوطي، مقللين إلى حد كبير من أدوار المقيمين الخمسة الذين تولوا تباعا بعد ليوطي من خريف 1925 إلى صيف 1936. وقد تبعهم في هذا التقييم استطلاع للرأي أجرته الأسبوعية Paris في الدار البيضاء في أكتوبر 1947 وأسفر عن النتائج التالية:

نوكيس : 68 %
سطيك : 18 %
بونصو : 8 %
بيروطون: 4 %
سان : 2 %

وقد أورد هويسنطن هذا الاستقراء دون أن يبين إن كان قد شمل المغاربة أو اقتصر على المعمرين، كما لم يعلق على التيار السياسي الذي كانت تمثله تلك الجريدة وعلى الهدف من الاستطلاع الذي قامت به.

عين نوكيس في المغرب سنة 1936 كممثل للجبهة الشعبية الفرنسية، مع ما في ذلك من مفارقة لأن الرجل كان أقرب إلى أفكار ليوطي منه إلى تيار ليون بلوم Léon Blum، علما بأن الإشتراكيين الفرنسيين لم يكونوا يفيضون حبا للمارشال وتجربته المغربية. غير أن حسابات بلوم السياسية فيما يتعلق بواقع المغرب وبالظرفية الخاصة المحيطة به هي التي حسمت أمر هذا الاختيار. وعلاوة على ذلك، يخبر هويسنطن القارئ بأن السلطان سيدي محمد بن يوسف انزعج لتعويض مارسيل بيروطون دون أن يترك له الوقت اللازم لمباشرة عمله (ص.51)، فراسل رئيس الجمهورية الفرنسية في الموضوع. وتبقى هذه النقطة في حاجة إلى المزيد من التحليل، سيما وأن الحركة الوطنية – التي كانت تعمل بتنسيق وثيق مع السلطان – رحبت برحيل بيروطون وعلقت آمالا جمة على المقيم العام الجديد. ومن المعلوم أن أصداء تجربة بيروطون بتونس قد جعلت صورته قاتمة لدى الوطنيين المغاربة، مما جعل

محمد بن الحسن الوزاني ينتقده بشدة في مذكراته[7]. وعلى النهج ذاته سار أبو بكر القادري عندما كتب:

" وبروتون هذا كان على رأس الإقامة العامة بتونس، فقام بأعمال وتصرفات منكرة، وقاوم مقاومة عنيفة الحركة الوطنية الممثلة في حزب الدستور، وكان مشهورا بالنزق والطيش والاندفاع والغرور والكراهية المطلقة لكل حركة وطنية[8]".

ويبقى السؤال مطروحا حول موقف الحركة الوطنية من بيروطون ودلالة الموقف السلطاني الذي أومأ إليه المؤرخ الأمريكي.

بينما كانت المقاومة المسلحة في العالم القروي تلفظ أنفاسها الأخيرة، انفجر ما نعته الكاتب ب"ثورة المدن" ابتداء من 1930 كنتيجة مباشرة لظهير 16 ماي 1930. وفتح ذلك على سلطات الحماية جبهة جديدة أجبرتها على خوض ما سماه هويسنطن ب"الباسفيكاسيون الحضري" (ص. 65). وكان نوكيس، من موقع مسؤولياته آنئذ في الشؤون الأهلية، أحد مهندسي هذه الخطة الرامية إلى تفادي الاصطدام المباشر مع الوطنيين وإلى تسخير السلطان والمخزن للقيام بهذه المهمة. وكان هذا الحذر في محله تماما لكون انبعاث الحركة الوطنية اقترن باتهام فرنسا بالسعي إلى تنصير الأمازيغ وإخراجهم من دائرة سلطة الشرع.

- وعندما رجع نوكيس إلى المغرب كمقيم عام سنة 1936، فإن تجربته السالفة في هذا البلد شكلت سجلا نفيسا لتعامله مع كتلة العمل الوطني ومع مطالبها الإصلاحية. غير أن الوضعية أصبحت معقدة أكثر من ذي قبل بسبب التأثيرات الأجنبية وبتحول المغرب إلى نقطة حساسة في العلاقات الدولية. وبينما كانت أعناق المغاربة مشرئبة إلى ما قد يأتي به ممثل الجبهة الشعبية من إصلاحات في شتى الميادين، بما فيها السياسية، أقدم المقيم العام الجديد على حظر كتلة العمل الوطني في مارس 1937 خشية انتقال نفوذها إلى البوادي. وإذا كان الوطنيون بعد ذلك قد استطاعوا إعادة تنظيم صفوفهم، فإن الأمر قد تم في جو من التفرقة بعد بروز خلافات بين علال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني، وهو الشيء الذي استبشرت له

(7) محمد حسن الوزاني: مذكرات حياة وجهاد، الجزء الرابع، ص. 187 وما يليها.

(8) أبو بكرالقادري: مذكرات في الحركة الوطنية المغربية من 1930 إلى 1940، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1992، ص. 370

الإقامة العامة معتقدة أنه قد يضعف من عزيمة الوطنيين ونفوذهم. غير أن هذا الاعتقاد كان واهيا، وهو ما اكتشفته الإدارة الفرنسية في خريف 1937 عندما رأت أن الخلافات بين التيارين الوطنيين لم تحل دون تنسيق مواقفهما بمناسبة أحداث بوفكران الدامية. وكان رد فعل السلطات هذه المرة عنيفا إذ قررت حظر كل من الحزب الوطني والحركة القومية، مع إلغاء صحافتهما وإبعاد زعيميهما إلى المنفى.

- كان نوكيس واعيا كل الوعي بأن نجاح الوطنيين في إسماع أصواتهم في الحواضر والبوادي مرتبط ارتباطا وثيقا بتفاقم الوضعية الاقتصادية والاجتماعية لعموم المغاربة. ومن ثمة راهن على النهوض بالحياة الاقتصادية والاجتماعية الكفيلة وحدها بضمان الهدوء. فاستثمر من أجل ذلك مجهودا كبيرا شمل مرافق عديدة بالرغم من استفحال الأزمة الاقتصادية بسبب توالي القحط والسنوات العجاف، والتي تجلت وطأتها سنة 1937 التي وصفها روبير مونطاني ب"السنة المهولة" وخلدتها الذاكرة الشعبية تحت اسم "عام الجوع".
- وعلاوة على هذا، كان على نوكيس أن يقاوم أيضا ضغوط المعمرين لتمرير سياسته. فقد ازدادت أعدادهم وتصاعدت سلطتهم منذ نهاية عهد ليوطي وبلغ عدد الرعايا الفرنسيين في سنة 115.000:1931 نسمة، أي أنهم ازدادوا بنسبة 42 % في ظرف خمس سنوات (ص.156). وقد بلغ هيجان الغلاة منهم ذروته عندما تظاهروا أمام الإقامة العامة في عهد هنري بونصو سنة 1934، وذلك ما نعتته الصحافة آنئذ ب"تمرد المعمرين المجزوزين" لكونهم حلقوا رؤوسهم رمزا للعوز والفاقة. وكان على نوكيس أن يسبح بين ضغوط المعمرين وتطلعات الأهالي، وهو يحاول جاهدا إقناع الطرف الأول بأن ازدهاره وطمأنينته تكمن في مساعدة الطرف الثاني للخروج من ظروف البؤس. ويرى هويسنطن أن نوكيس قد تمكن، بفضل إجراءات إصلاحية في الميادين التجارية والفلاحية والمالية، من جعل المعمرين يسلكون موقفا معتدلا لايزعج سياسته في وقت كثرت فيه التحديات على المستويات المحلية والجهوية والدولية.
- وفيما يتعلق بالتحديات الجهوية، فقد كانت أحداث إسبانيا أكثرها خطورة، وكان الفرنسيون منزعجين مما قد تفرزه من نتائج في المغرب، سيما وأن سكان المنطقة الخليفية

حشروا فيها حشرا. وعظم هذا القلق بانخراط كل من الطليان والألمان في تلكم الأحداث، مما في ذلك من إخلال بميزان القوى بالمنطقة. وقد اتهمت الأوساط الرسمية ألمانيا بالعودة إلى أطماعها القديمة في المغرب (أزمة طنجة سنة 1905– أزمة أكادير1911...)، لكن ربما فاق تهويل القضية حجمها الحقيقي على أرض الواقع.

- استطاع القوميون الإسبان أن يرسخوا أقدامهم في المنطقة الخليفية ويعتمدوا عليها كخزان بشري إذ قاتل أزيد من 60.000 مغربي في صفوف الجنرال فرانكو بين 1936 و1939. ومن أعظم أسباب هذا النجاح تلك السياسة " الأهلية" التي نهجها هناك بيكبيدير Beigbeder والتي استلهمت كثيرا من عناصرها من سياسة ليوطي (احترام الإسلام والحضارة العربية – توقير الأعيان الخ). وفي هذا الشأن كتب هويسنطن:

" أما في نظر الفرنسيين، فإن بيكبيدير كان مصيبة بكل ما في الكلمة من معنى، لأنه يعمل بمنهجية ليوطي ولكن ضد فرنسا، يوم كان نوكيس مضطرا للتخلي عن بعض لباقة المارشال" (ص. 221)

- إذا كانت مكانة نوكيس قد تعززت بفضل دهائه السياسي في مواجهة كل التحديات المشار إليها أعلاه، فإنها عظمت بصفة أكبر بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية وأصبح مصير فرنسا يتقرر إلى حد ما في شمال إفريقيا. فالسلطات العسكرية الواسعة التي كان يتمتع بها نوكيس في هذه المنطقة الاستراتيجية قد جعلته محط ترقب دقيق في فرنسا ولدى دول المحور. وبفضل علاقاته الودية مع السلطان، تمكن نوكيس من أن يتفادى تحول المغرب إلى مصدر توتر بالنسبة للميتروبول. بل على العكس من ذلك تماما، أصبح المغرب طرفا مؤازرا للمجهود الحربي الفرنسي حتى صيف 1940. ولما اختار نظام فيشي مهادنة المنتصرين، فضل نوكيس الولاء لما اعتبره "الشرعية" بالرغم من ضغوط الإنجليز ونداءات دوكول. وإذ تحول ممثل الجبهة الشعبية اليسارية إلى ناطق باسم نظام شمولي يميني، فإن مثله الأعلى ظل في كل الأحوال هو الدفاع عن مصالح فرنسا في المغرب. ومن المفارقات الصارخة في هذه الحقبة كون نوكيس، وهو الوارث الروحي للمارشال ليوطي،

أصبح في المغرب أداة لترسيخ صورة مارشال آخر، المارشال بيتان Pétain، على حساب آثار ليوطي وذكراه.

- كان طبيعيا أن تتشوف الولايات المتحدة الأمريكية إلى الدور الذي يمكن للمغرب خاصة، وشمال إفريقيا عامة، أن يلعبه في خضم تطورات الحرب. ولما لم تعد هيبة فرنسا بالمنطقة كافية للمراهنة عليها في هذا الدور المرتقب، فإن الأمريكيين عملوا بشتى الوسائل على ربط علاقات بالمغاربة، وفي مقدمتهم السلطان وبعض كبار الأعيان، وهو ما تضايقت منه الإقامة العامة خشية من آثاره على مكانة فرنسا في عيون الأهالي. ومن تمة قرار نوكيس بالتصدي للنزول الأمريكي بالمغرب في نونبر1942. وقد حدث بالفعل ما كان يخشاه نوكيس في مؤتمر أنفا(يناير1943) حيث تم اللقاء المشهور بين فرنكلين روزفلت والسلطان سيدي محمد بن يوسف، ذلك اللقاء الذي أعاد للمطالب الوطنية حرارتها والذي انتهت بعده بشهوره معدودة مأمورية نوكيس بالمغرب (يونيو1943).

- وتجدر الملاحظة هنا أن هويسنطن أولى تدخل الأمريكيين في شؤون المغرب أهمية بالغة، لا لكونه أمريكيا فحسب، ولكن أيضا لأن الأرشيف الأمريكي وفر له مادة تاريخية نفيسة.

- وفق المؤرخ الأمريكي في معالجة فترة تاريخية حاسمة بدقة كبيرة اعتمادا على أرشيف متنوع: أمريكي وفرنسي وبريطاني وإسباني وألماني، مع بعض التقصير في استغلال الوثائق والمصادر المغربية خاصة منها المكتوبة بالعربية. ويبقى أهم ذلك الأرشيف كله ما وضعته عائلة نوكيس رهن إشارة الكاتب. وإذا كان الموضوع الرئيس والبطل البارز في الكتاب هو نوكيس، فإن ظل ليوطي كان حاضرا بقوة في كل محطات الحقبة التاريخية الممتدة ما بين 1936 و 1943.

ملاحظات في شأن التعريب

- وفق ذ. إبراهيم بوطالب في اختيار كتاب قيم يستحق التعريب إذ يضيف لبنة جديدة لمعرفة قراء اللغة العربية بتاريخ مغرب القرن العشرين.

- وفق المعرب في وضع عنوان جيد لهذا الكتاب، وهو عنوان ينفذ إلى جوهر موضوع المؤلف، تفاديا لأية ترجمة حرفية للعنوان الأصلي(Casablanca Connection) والتي قد لا تعني شيئا بالنسبة للقارئ العربي.

- من مزايا هذا التعريب أن المرء يقرأه بلغة فصيحة وسلسة، من ذلك الأسلوب السهل الممتنع الذي يكاد القارئ ينسى في ثناياه الأصل العجمي للنص. ويبدو من ذلك أن المعرب قد تشبع بمعاني ودلالات النص الإنجليزي، ثم صاغها بمهارة إلى العربية. ولا تخفى صعوبة هذه العملية التي تتطلب رسوخ القدمين في اللغتين معا.

- سنحت الفرصة لإبراهيم بوطالب باستثمار مصطلحات أجنبية ما فتئ منذ زمن غير يسير يحث على الاحتفاظ بها حرفيا عند كتابة تاريخ مغرب القرن العشرين وعدم المغامرة بتعريبها بأية كلمات لا تعبر بعمق عن دلالتها الأصلية. وهكذا، على سبيل المثال، نصادف مرات عديدة مصطلح " الباسيفيكاسيون" الذي يرفض المعرب استبداله بكلمات من قبيل التمهيد أو التهدئة.

- كان التعريب وفيا للأصل، إلا في حالات قليلة جدا طفت فيها المشاعر الدينية والوطنية للمعرب: الصفحة 68 عند ذكر اسم النبي محمد، والصفحة 195 عند التعليق على إحدى الصور. فالأليق، في نظرنا، نقل الأصل مجردا من أية إضافات ذات دلالات ذاتية.

- يشكل هذا العمل الدليل الواضح على أن هنالك من الأعمال التاريخية الأجنبية ما هو كفيل بإغناء الهيستوغرافيا المغربية. وفي الوقت الذي يتقلص فيه عاما بعد عام الإنتاج التاريخي الفرنسي المتعلق بالمغرب، يجدر بنا أن نقتدي بمبادرة الأستاذ إبراهيم بوطالب في الانفتاح على ما كتبه غير الفرنسيين ونقله، بواسطة التعريب، إلى المكتبة العربية.*

جامع بيضا

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.

(*) بينما كان هذا العرض تحت الطبع، علمنا بأن المؤلف الذي أنجزه الأستاذ إبراهيم بوطالب قد توج بجائزة المغرب للكتاب برسم 2003 في ميدان الترجمة. وإننا لننتهز هذه المناسبة لنهنئ أستاذنا الجليل وندعو له بكامل التوفيق وبالمزيد من التألق والعطاء.